وقد تنسق لهذه الصيغة وتحلو وترقّ ، إذ هى تنشز على تلك وتَستصعب .

لهذا آثر حافظ أوشاءله القدر ألا يأخذمفردات اللغة الا من اكرم مناجمها ،وألاّ يطالعها إلا وهى فى عقود نظامها ، فيما حمل من رائع الشعر ، وما استظهر من فاتن النثر ، فعرف فى شعره ونثره كليهما ، كيف يضع كل كلمة فى موضعها ، وكيف يضم الجنس الى جنسه ، ويضيف الشكل الى شكله. ومهما اختلف النقدة فى شعر حافظ وفى شاعريته فانهم لم يفترقوا قط فى أنه كان أمهر الصاغة فى هذا الزمان .

وخلة أخرى تتصل بهذا المعنى ، وهى أن بعض الشعراء إذا أعوزتهم القافية فزعوا الى المعاجم حتى إذا سقطوا عليها استكرهوها على النظم فخرجت ، فى الغالب، غريبة شامسة ، أو قلقة نابية . أما حافظ فقد سلم من هذا ، وإنك ما تكاد تطالع صدر بيته حتى تراك قد أطللتَ من نفسك على القافية .

* * *

هذه ناحية من جدوى حافظ إبراهيم على اللغة والأدب . أسأل الله تعالى أن يرحمه الرحمة الواسعة ، وان يعوض الادب العربى عنه خير العِوض ؟

عبدالعزيز البشرى

حافظ ابراهيم

بين ظرفه ومجونه

وماذا أقول عن حافظ ابراهيم ، وأى جانب من جوانبه أتناول بالنقد والبحث والتمحيص ؟

إنما أود أن أمرّ فى هذه العجالة على ناحية مع نواحيه البارزة الممتازة التى أتيح لى أثناء اتصالى به ردحاً من الزمن أن أتبينها وأعجب بها : تلك هى روحه الفكهة الطروبة ، بل نفسه المَرِحة الضاحكة ، بل قلبه العامر بالظرف والايمان مما كان يبدو فى نظر بعض الناس استهتاراً وقلة اكتراث .

أتحدث فى هذه الكلمة القصيرة عن ظرف حافظ ،ومجون حافظ ، وخفة حافظ ، وكرم أخلاق حافظ ، بل سعة نفسه إلى أبعد مدى وأقصى حدّ .

كان حافظ فى أخلاقه ومزاجه وروحه ونفسه وسخائه وشجاعته ومنطقه وحديثه بل فى كل حركاته وسكناته وسائر مزاياه أديباً كل الأديب .

وإنى لأذكره فى جلسته فى « بار اللواء » وقد التفّ من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون وداروا حوله فى شبه حلقة وحافظ لا ينقطع « الجرسون » عن التردد على مجلسه ذهاباً وجيئة فاذا ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير .

وإنى لأذكر صحفياً يعتبر الآن من ذوى اليسار راهن حافظاً على أمر من الأمور فلما خسر حافظ الرهان أخرج من جيبه فدية رهانه ورقة مالية من فئة الخمسين جنيهاً ، وكان موقفاً عجباً كاد يخيَّل إلىَّ بعده أنى لا أعيش فى هذا العالم المادى العنيف !

وأذكر أنى دعوتُ حافظاً إلى القناطر الخيرية حيث كنت أسكنها عام ١٩٢٣ إلى غذاء متواضع وقد جاء اليها فى بعض أصدقائه كلهم أيسر منه حالاً وأوفر مالاً ، وكانوا يركبون فى ذهابهم وعودتهم سيارة « تاكس » وقد دفع لسائقها مائة وخمسين قرشاً وهى تربو على تكاليف غذائى . فلما أظهرت له دهشتى أظهر لى دهشة أشدّ منها وعجب كيف أنى أود ان اعلمه الاقتصاد فى آخر الزمن !

وإنى لأعلم انه جنى من آخر طبعة لكتابه « البؤساء » حوالى ألفى جنيه أنفقها جميعها فى نفس الشهر الذى استولى عليها فيه !

أليس عجيباً أن تتاح لحافظ فرص عدة للثراء ثم يموت دون أن يقتنى منزلاً يسكنه فى حياته أو كفافاً من المال ينفع مَن بعده مِن ذوى قرابته ؟

وشهدت حافظاً فى داره بحلوان فى رمضان وقد استوى للافطار على مائدته جمعٌ من أصدقائه وألوان الطعام تغدو وتروح من كل شهى الطعم جيد الصنع ولكن فى أطباق من الصاج ، والتمر الهندي يقدم فى بوادق من الصاج أيضاً .

وإنى لأذكر فى تلك الجلسة أديباً كبيراً وقد قال : « لا ينقص هذه الأكلة الشهية إلا الثلج وهو لا يتكلف ملاليم » فبادره حافظ : « فلتفرض أنك فى بيتك ! »

وأذكر أنه سُئل عن صديق من أصدقائه الأفذاذ وكيف أن صديقه هذا يفضل الولائم والتردد على الموائد وهو ولله الحمد فى عيشة وارفة راضية بل كيف أن صديقه على ضعف صحته شديد النهم فقال : « إنه قضى أربع عشرة سنة يأكل (اردفر) فى الازهر ! »

وأذكر ان اصدقاءه أرادوا ان يعبثوا معه ويماجنوه فى ليلة من ليالى رمضان ويختبروا مائدته وكانت مضرب المثل ومهبط الأدباء والعظماء فانقسموا فريقين وقد دخل فريق منهم فى ساعة الغروب فلم يكادوا ينتهون من إفطارهم حتى هاجمه الباقون، ومع ذلك فقد استطاع حافظ ان يستر موقفه وان يرد كيدهم ويدحض غلة من مجونهم وان يقدم لهم الوفير من الطعام فى أصنافه التى كان يولع بها وتجيدها طاهيته الماهرة .

وخرج حافظ الى مقهى الجندى فى الاوبرا — وكان يتردد عليه أخيراً من داره بالجيزة عصر كل يوم ، يدفع أجرة للعربة أكثر من ثلاثين قرشاً ذهاباً وجيئة ليدخن نرجيلته هناك فى حوالى خمس دقائق ، ثم يدفع ثمنها لخادم القهوة وينقده أكثر من ثمنها نظير خدمته وينصرف — والتقى به إذ جلس فى ذلك المقهى أحد أصحاب الصحف الاسبوعية وقال له : « إنما كنت أتفقدك لاقترض منك جنيهاً أنا فى أشد الحاجة اليه » فضحك حافظ وقال له : « عمرك اطول من عمرى ! »

إنى لن أنسى له رحمه الله جلسات رائعة فى دار المغفور له محمد عثمان اباظه باشا بربعاية من اعمال مركز منيا القمح ، فقد كان مجلسه فيه ندوة أدبية معدومة النظير أذكره وقد رأى شابين أحدهما وسيم الطلعة والآخر دميمها فقال من فوره للدميم مشيراً لصاحبه الوسيم: « هكذا أبناء الامهات الذين تدفع المهور الغالية لأمهاتهم ! »

كما لن أنسى طرفة لأحد أدبائنا الافذاذ إذ بادره بقوله : « وعلى هذا القياس تكون المرحومة والدتك قد دفعت (دوتا) للمرحوم والدك ! »

ودعاه صديق له ليطلعه على مقبرة بناها لوالده فقال له حافظ : وكم كلفتها ؟ فقال الصديق : « مائة جنيه بالميت ! » فقال حافظ : « دى رخره تربة ترد الروح ! »

وسمع حافظ أن امام العبد لايفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً فلما التقى امام بحافظ دلف اليه فى شأن مادى فقال حافظ : « والله يامولاى كما خلقتنى ! »

ورأى حافظ اماماً يكتب والقلم يتساقط منه المداد فقال « جفف عرقك يا امام ! » ورأى إماماً فى بذلة بيضاء وقميص أبيض وربطة عنق سوداء فقال له : « زرر قميصك الافرنجى ! »

وكان حافظ رحمه الله كثير التشكك فى صحته مشغولاً بها، يتوهم فى نفسه الأمراض

كلها ،لا يسأل عن علة إلا سأل عن عوارضها ليرى أهى منطبقة عليه أم بعيدة عنه، ثم يميل فى النهاية إلى الأخذ بأنه مريض لمجرد تشككه فى شعوره بعارض من عوارضها . وقد ينتهى بالأحساس بها فيتداوى منها ويتحدث طول وقته عنها . التقى بطبيب من أصدقائه فبادره بشكواه من الأعور وأشار إلى أعلى فخذه الأيمن فردّه صديقه الطبيب بأن وهمه بعيد عن الواقع الذى يعترف به الطب لأن الأعور يكون فى الجهة اليسرى فعارضه : « وانت مالك يا أخى يمكن يكون أعور يمين ! »

ولو حاولت أن أسرد كل نوادر حافظ لامتدّ بى الوقت فلأترك المقام لغيرى يتناول بقية جوانبه الممتازة وكلها بارزة ، فقد كان حافظ رحمه الله رجلاً بكل معانى الرجولة ، أديباً بكل معانى الأديب ، وكان طيب القلب طاهر النفس صافى الروح لا يحمل لأحد حقداً ولا يحاول الكيد لاحد .

وكان حافظ ينعى على أهل هذا الزمن وهذا البلد بوجه خاص ذلك القتال العنيف من أجل تلك الحياة القصيرة الزائلة ، بل ذلك النضال القوى من أجل ذلك العيش التافه المحدود ، وكان لا يرى المال إلا وسيلة من وسائل العيش لا غاية من غايات الحياة .

وكان رحمه الله يعرف الشىء الكثير عن رجالات هذا البلد ماضيهم وحاضرهم فقد أدرك أكثرهم فى صدر شبابه وبدء صباه ، وكانت صلته بالمرحوم الشيخ محمد عبده تمكنه من الاشراف من كثب على تصرفات كثير من الناس وحركاتهم وسكناتهم ومحاولاتهم ، لهذا لم يكن يرى واحداً منهم بالعين الأخيرة الكبيرة بل كان ينظر لهم دائماً بالعين القديمة الصغيرة ، يذكر عن كل واحد من البارزين حادثة أو موقفاً أو مناسبة ثم يعلق عليها بطرفة من طرفه او فكاهة من فكاهاته ويتندر بذلك فكان حديثه لا يملّ وكلامه لا يرغب عنه .

وكان حافظ يتبرم بميل طائفة كبيرة من جمهرة الناس هنا إلى المبالغة : فالعرب كل واحد منهم « شيخ عرب » ! وأين العرب أنفسهم ؟ علم ذلك عند الله ! والنبوغ لا يتسع إلا لواحد : فالدكتور على باشا ابراهيم جراح وكل من عداه « حمار » وسامى الشوا موسيقار وكل من عداه « حمار » ، ومحمد عبد الوهاب « المطرب الوحيد » وإذن فليس مطرب سواه ؛ وهذا المهندس ليس فى مصر غيره ، وذلك

الكاتب أكتب الكتاب، إلى غير ذلك من المبالغات التي تواضع الناس على أنها الاصل المقبول والواقع المعقول !

وكان حافظ يشكو من تدخل بعض المصريين فيما لا يعنيهم وانصرافهم عن شئونهم للاعتكاف على شئون غيرهم . وينعى على مصر اشتغالها كلها بالسياسة سواء فى ذلك صغيرها وكبيرها ، عالمها وجاهلها ، ذكيها وأبلهها ! وقد سمعته يقول إن انجلترا وهى سيدة الممالك تترك لعشرات من رجالها الاشتغال بادارة دفة سياستها . أما مصر فان بها أربعة عشر مليون سياسى ! وكانت له رحمه الله نظرات ثاقبة فى المواقف السياسية وفى المشتغلين بها ونبوءات تحقق منها الشيء الكثير .

وبالرغم من أن حافظاً قد تعرض لكثير من سخط الدهر وقسوة الزمن وشظف العيش وخشونته إلا أن شيئاً من ذلك لم يؤثر فى خلقه ولا فى رأيه فى غيره من الخلق بل ولا فى الزمن والعيش والحياة .

رحم الله حافظاً وعزّى عنه أسرة الأدب وألهمهم السداد والتوفيق فى القيام ببعض ما لهذا الأديب الفذ عليهم وعلى البلاد من حق ، وكفاء ما كان له فى الأدب المصرى الوطنى من أثر !

حسن القاياتى

حافظ واللغة الفصيحة

كنتُ وعدت الصديق العزيز محرر (أبولو) أن أكتب كلمة للعدد الخاص بذكرى حافظ ، وأخذت أسوّف ، ولى أعذار فى التسويف حتى كاد يونية ينصرم ، وعدت أفكر فى التحلل من ذلك الوعد ، فانى على سفر ، وفوق كاهلى واجبات لا بدّ من انجازها .

ولكن ذكرى حافظ كانت تهيجنى فى كل لحظة ممثّلة فى بيته الحزين :

مرضنا فما عادنا عائدٌ ولا قيل أينَ الفتى الالمعى

ومرّ بالبال أنى شُغلت عن شهود جنازته ، فمن المروءة ان لا أُشغل عن شهود ذكراه .